

«أيها الرعيان، لا يكون الذئب مخطئاً إلا عندما لا يكون الأقوى!»

جان دولا فونتين (1621م – 1695م)

من الذئب والرعيان.

## الخلاصة

### من يخاف من الذئب الشرير؟

قبل أن ننهي هذا الكتاب، لننظر إلى التلفاز للمرة الأخيرة وبإمعان، ولنقترب منه أكثر، فماذا نرى؟ ما الصور المشرقة أو القاتمة، المألوفة المحببة أو المخيفة؟ لماذا كل هذا الاستهتار دون مغزى، وكل هذه الأمور المرعبة المولدة للكوابيس؟ ماذا يمثل هؤلاء الأبطال الرخيصون، وهذه الأخبار التي تُنقل بشكل مثير؟ ومن أين تأتي كل تكشيرات الحقد، وهذه البلاهات في الابتسامة المصطنعة التجارية؟ ولماذا هذا الذوق السقيم، ولماذا هذه السطحية المرعبة، وهذا الرفض للفهم والتحليل، وهذا الميل للأفكار المسبقة التافهة؟

أسنا نرى من خلال طيف الألوان الباهر على الشاشة صورة من أنفسنا في ذعرها الدنيء من الحياة، وفي اضطرابنا المضحك؟ أليست المخاطر التي نريد أن نحمي أطفالنا منها هي نفسها التي صنعناها بتؤدة من خلال تكوين مجتمعاتنا التي نعيش فيها؟ من أراد عالماً يتغلب فيه المال

على المقومات الشخصية، ويقدم فيه النجاح كمبدأ من مبادئ المجتمع؟ والمنافسة الشرسة التي يظهرها نظامنا التعليمي من أسسها؟ ومن حرص الهروب الولهان من خلال الحلم - الذي أصبح فردوساً زائفاً - غيرنا نحن مواطنو المجتمعات الليبرالية التي نصفها بالمتطورة؟.

لقد حصلنا على التلفاز الذي نستحقه، بينما لم نُح لأطفالنا الفرصة لاختيار العالم الذي نقدمه لهم، وكما يقول المثل الصيني: «عندما يشير الإصبع إلى القمر فإن الأحقق ينظر إلى الإصبع ولا يرى القمر» في عصرنا لقد أصبح الإصبع رقمياً - إن صح التعبير - شاردياً صوتياً مهبطياً مربوطاً بالكبل ومالياً، لقد أصبح الإصبع مغطى بكف من الحرير البصري، ولكنه مازال إصبعاً، وغدا الأحقق أكثر حمقاً من أي وقت مضى، وحتى القمر بعد أن غزته وكالة الفضاء الأمريكية NASA لم يعد سوى صورة افتراضية.

إحدى شعارات انتفاضة 1968م في فرنسا كان ينصح بالآتي: «كونوا واقعيين، واطلبوا المستحيل». ونحن من جانبنا نريد أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك: إننا نريد الحصول على القمر! ولسنا ضد الإصبع الذي لا يتمنى أحد قطعه، ولسنا كالجراح الذي يدعي أن العضو الذي بتر منه جزء قد شفي، ما حاولنا فعله خلال الصفحات المتتالية للكتاب لم يكن سوى تذكير عنيد بالفرق بين القمر والإصبع، إن تشويه الإصبع وإطالته وكسوته وحوسبته وجعله ديموقراطياً لا تستطيع تغيير مهمته، والمجنون لن يعود إلى رشده إذا زاد عدد الأصابع التي تشير إلى القمر، بل إن هذا سيزيد من تخبطه الذهني، ويبدو للأسف أن الاتجاه الحالي للإعلام سائر بهذا الاتجاه، ويتناسب تطور التقانات عكساً مع المحتوى والمعنى، ويزداد العرض بجنون بينما تبقى نوعية العروض ثابتة أو تتراجع، ويزداد

ثراء تجار الصور بينما ينخفض إبداع المخرجين، ويؤدي تنوع المحطات لترسيخ النمطية المملة الهزيلة للبرامج، ولا تزيدنا حرية الخيار المتزايدة سوى عبودية يوماً بعد يوم، وكلما زاد ثراؤنا كلما نقص انتماؤنا.

ولكن بدلاً من النحيب لنر ما يمكننا فعله نحن، وهذا هو الأهم. يصعب علينا تغيير العالم إذا لم نبدأ بتغيير أنفسنا. فالتاريخ يفتح بأصحاب العقول الجبارة، والثوريين الطيبين، والمصلحين الجريئين، والقادة الموهوبين، ولكنها نادرة تلك الانقلابات التي لم تنته بالعسف والرعب ومعسكرات العمل القهرية، أو بكل بساطة بالعبارات الجوفاء: فكم من حرائق كبيرة تحولت إلى بؤر من الجحيم، وكم من نيران مقدسة أخدمت بالثرهات، لا نحن لسنا بصدد تجهيز حملة تآديبية ضد المحطات التجارية، ولن نقود أي حملة صليبية ضد التلفاز، فقد بقي الرائي في مكانه في بيوتنا، وما زال أطفالنا يقضون بعض الوقت أمامه وحدهم أو بوجودنا، وقد يشاهدون برامج جيدة وأخرى أقل جودة، وبإمكان عمالقة الإعلام أن يناموا قريبي الأعين، فنحن لا نلومهم أكثر من سائق الشاحنة الكبيرة الذي يخنقنا بدخان قاطرته أثناء تأدية عمله مثل كل الناس.

ولكن لنا أنياب كواسر ضارية نرفض بها الاستسلام السهل والخمول العقلي والمسايرة الضعيفة التي تسمح لسدنة المعبد الإعلامي الادعاء بأننا أردنا هذه الرداءة المشوهة، أو أننا طلبنا هذا التعطيل التام للعقل بالتخدير الكامل، أو أن أطفالنا يطالبون بالعنف والبشاعة، إننا نرفض بكل قوانا أن نندمج في هذه التركيبة الهلامية اللزجة التي لا قوام لها ولا مادة فيها، والتي لا تملك الشجاعة والفكر، والتي يدعونها الجمهور، هذه المجموعة التي لا وجود لها إلا في الإحصائيات الخيالية، والتي ليست إلا المتوسط بين

الكبير والصغير، والرجل والمرأة، وبين الشاي والقهوة والملح والسكر، وبين الحياة والموت، هذا الجمهور الذي ندعي أنه يطالب بالخبز المغلف مُسبق الصنع والألعاب التلفازية، ليس إلا تعبير عن الوسط غير الصحيح الواقع في منتصف المسافة بين شُطآن المحيط ولازورد الجبال الشامخة، وهذا يعني ببساطة أنه غير موجود.

إلى هذا الجمهور اللافقاري ضحية المتلاعبين الجشعين نقدم الإنسان المسؤول عن نفسه وعن الآخرين، والمتمرد على تيار فكري واحد ديني أو سياسي، ولكنه بنفس الوقت متضامن مع كل أبناء جنسه، فالإنسان المميز يرفض أن تحتويه استطلاعات الرأي، فالتكافل الموجود بيننا لا علاقة له بالأغلبية، وخاصة أغلبية استطلاعات الرأي بخصوص البرنامج الأكثر مشاهدة والأقل مدعاة للتفكير بأن واحد، بما أننا تكلمنا عن التربية في هذا الكتاب، فإننا نسمح لأنفسنا بأن نذكر بأن هدف الكتاب ليس أن نحول الطفل إلى مادة هلامية من الجمهور التلفازي، وإنما إلى إنسان بكل معنى الكلمة، إنسان ينتمي لعصرنا، لا يخاف المستقبل ولا يجهل الماضي، وفي علاقة مباشرة مع الحاضر، هذا الحاضر الذي يحتل فيه التلفاز مكاناً مهماً، ولكن ليس كل المكان.

كي نُربيّ علينا أن نبدأ بأنفسنا، كأن نطلب من الطفل التفكير، دون أن نقوم نحن بهذا، وهذا غير منطقي، أن نعلم الطفل كيف يشاهد التلفاز بينما ندس رؤوسنا في التراب، يجعلنا هذا السلوك في وضع أسوأ من وضع النعامة، التي لا تصنع من نفسها مثلاً للأجيال القادمة، أن نطالب الصغير بالأخضع لإغراء المشاهدة السهلة، بينما نعيش نحن حياة بالية لا يتعدى كونه تناقض عقيم بحسب قول كريشنامورتى: «أن نحرم الآخر

من الأحلام حتى التعيسة، بينما نحن عاجزون عن أن نعلم ولو لحظة»،  
مُتذرعين بالحجج الواهية بأن هناك أموراً أخرى أفضل يمكن فعلها، هذه  
فعلًا حماقة.

ما ينطبق على التلفاز ينطبق على كل مشاريع الإنسان: على شاكلته!

فإذا كان واقفنا مطموس المعالم، وفاقدًا للحياة وسطحيًا، وكان لغزاً لا  
يستحق الحل، ومليئاً بأشخاص ضعاف الشخصية، فكيف نتوقع من هذا  
الواقع المسوخ ببعديه على الشاشة الصغيرة أن يضيء فجأة بنور لا يملكه  
أصله، وكيف نريد له أن يأخذ أبعاداً تضاهي ارتفاع هيمالايا، يصبح بها  
العبد إلهًا، ويفدو به الأحمق حكيمًا؟

نريد التفاعل؟ فلنبدأ بالتفاعل مع أنفسنا، ومع المناطق المنسية في  
حياتنا وضمائرنا وأجسادنا، ولنتفاعل مع العالم الذي نحب وبدون جهاز  
تحكم عن بعد من فضلكم!

ولنتفاعل مع الهواء الطلق الذي لا يعزلنا عنه سوى حوصلاتنا  
الرثوية، ولنتفاعل مع أطفالنا، وليكن قلبنا هو مبعث السرور الوحيد.

وعندها ستقع نظراتنا التي زالت عنها الغشاوة مندهشة على هذا  
الصندوق المكعب الذي ندعوه التلفاز، وسيزول عجبنا عندما نتأمل فيه  
ملياً: إذا فالأمر لم يكن سوى هذا؟ مجرد آلة بسيطة عبقرية حقاً، كانت  
تسحرنا بشكل غريب، وتخيفنا بدون مبرر، ولكنها لا تستحق على كل  
الأحوال هذا الاهتمام المبالغ به، والإعجاب الساذج، أو حتى الاشمئزاز  
العميق الذي أبديناه بصدها.

وماذا بعد ...

إن الكتاب الذي ستهنون قراءته قريباً لم يلد بين يوم وليلة، ففي القرن الماضي عندما اخترع فلاديمير زوركين محلل الصورة (إيكونوسكوب)، لم يخطر ببال أحد ما يمكن أن يكون لهذا الاختراع من نتائج، ولم يكن أحد يعرف إن كان له أي مستقبل.

وسريعاً أثبت الباحثون أن التلفاز - وإن لم يكن من اختراع الشيطان - ليس بالأداة البريئة، فالعلاقة بين عنف المشاهد ونقلها إلى الواقع لم يعد موضع شك بعد الآن، وقد أوضحنا هذا الأمر بجلاء في مقاطع سابقة من هذا الكتاب، وأكدت هذه المعلومة دراسة جديدة جداً أجريت خلال 17 عاماً على سبع مئة وسبعة أطفال، نشرت في المجلة الراقية (العلم) Science في آذار 2002م لا تدع مجالاً للشك في صحتها، لم يسبق للإنسان أن تكلم عن الصحة كما تكلم عنها في هذه الأيام، ورغم ذلك فإن التسلية الأكثر شيوعاً بين بني البشر تتلخص بأن يغلِق الإنسان على نفسه الباب في حجرة سيئة التهوية، وأن يُعد نفسه لحدوث أمراض القلب الوعائية بازدراد الطعام متسماً أمام الشاشة الصغيرة.

عندما بدأ اهتمامنا بالموضوع في التسعينات كنا مقتنعين منذ ذلك الوقت أن تطور التلفاز نحو أشكال ضارة مؤذية حاصل لا محالة، ولكن كان يداعبنا الأمل أن تخيب الأحداث توقعاتنا، ففي النهاية لماذا لا يكون التلفاز قابلاً للتحسن؟ وأن يحسن وضع مُريديه؟

لسوء الحظ كان لا بد من خفض النبرة، فما كان في ذلك الوقت يعتبر انحرافاً مزعجاً محتملاً - تلاعب واحتواء وتلصص وحث على العنف -

أصبح المحور الرئيس «للإبداع التلفازي». تم اختراق المرحلة الأولى مع قصة لوفت في البلدان الناطقة بالفرنسية (أصداقنا على الطرف الثاني من الأطلسي هم السابقون وبمراحل في هذا النوع من التجديد). لا شيء يستحق الذكر ظاهراً: بعض الفتيات والفتيان المحجور عليهم في مكان مغلق تحت رقابة الكاميرا الدائمة ونظرات المشاهدين، هذا ما يسميه تلفاز الواقع الناس الأكثر تسامحاً، وما يسميه تلفاز القمامة أو تلفاز المرحاض المظهرين في عصرنا، ولكن اللوفت قبل كل شيء هو اندفاع غير قابل للتراجع في طريق جديدة: لم يعد الأمر من الآن فصاعداً أن نعكس الواقع أو أن نقده، وإنما أن ننتجه من الألف إلى الياء، تدعون أن الواقع الحقيقي للشباب الفرنسي معقد؟ ليس الأمر ذا أهمية، فستُعاد كتابته باختصاره إلى ما يمكن للشاشة أن تُبدي منه، الشباب يبحثون عن الحب، وهذه معلومة غير جذابة بلغة التلفاز؟ الأمر بسيط فسوف نربط القلب بالجنس من خلال عملية مهبطية تشرف عليها روح القدس، إن ما يصدم النفوس ليس هو ما يُعرض في اللوفت: قليلاً من المناظر الفاضحة بجرعة مقبولة، وضحالة فكرية واضحة، فكل هذا لا يقتضي منا تجهيز حملة صليبية لتطهيره، بالمقابل فإننا نشهد هنا نتاج التأثير التصميمي المشهور في مرحلته الأخيرة، فنحن لا نعرض على المُشاهد الشباب كما هم في الحياة، وإنما نعرض عليه ما يرغب برؤيته، ولكن ببُعدين على الشاشة المسطحة.

في بطولة العالم الأخيرة لكرة القدم في اليابان وكوريا، لم يُنظر إلى الإقصاء المبكر لفريق فرنسا الكروي على أنه هزيمة رياضية، وإنما ككارثة اقتصادية، فاللاعبون الذين تحولوا إلى رجال — سندويتش بما يحملونه من الدعايات على الوجهين، والذين كانوا الضامنين لأعلى نسبة

مشاهدة على محطة تلفاز تجارية جشعة، هؤلاء الشباب السود والبيض و المغاربة من الجيل الثاني تحولوا خلال أيام قليلة من رمز لفرنسا متعددة الثقافات الراحبة، إلى رمز للإفلاس الاقتصادي، وأين حصلت هذه المسألة؟ على ملعب الكرة؟ أم في مقصورة سماسرة البورصة؟ لا هذا ولا ذلك، وإنما على شاشات التلفاز! فمرة أخرى حلت الصورة محل الواقع، وفرضت نفسها عليه.

ولكننا نتوقع أن الأسوأ من هذا قادم في المستقبل، فبإمكاننا أن نبدأ بتذوق ما ينتظرنا في المستقبل بمشاهدة ما يعرض على الشاشات في فرنسا خلال ساعات ذروة المشاهدة، وهي لعبة تقوم على المزاح الماجن الممزوج بالسخرية الذي تتال به مقدمة البرنامج من «المتسابقين». هذا البرنامج يلقى نجاحاً باهراً فالأطفال معجبون به كثيراً!

حسبكم حسبكم! كل هذا بهدف الضحك! ففي الجانب الآخر ليجر المانش الناس أكثر شراً، فعند الأنغلو ساكسون (وهم أناس جديون) في مثل هذه الألعاب لا يُستفَز المتسابقون فقط بل يُعرضون للإهانة، ونحن نقلدهم فتأتي النسخة أبهت من الأصل، فالاستهزاء يحل محل الشتيمة، ولكننا لا بد أن نصل إلى السبب في النهاية.

تخيل الكاتب الأمريكي ستيفن كينغ في عام 1982م في كتابه الرجل اللاهث مجتمعاً تسيطر عليه محطة تلفاز، واحدة من الألعاب الأكثر شعبية على محطة ليبرتل هي إطلاق أحد المتسابقين قبل ساعات من إطلاق عصابة من القتلة خلفه، ويشارك المشاهد فعلاً كجاسوس، مفرغاً كل حقه وكل نزواته في هذا المتسابق التعيس، إن قدرة المشاهد على

التفكير والتمرد تصبح عقبة، فينبطح أمام الجبروت السياسي الإعلامي لبعض المتسلطين على حساب الغالبية من الآخرين، كان هذا نوعاً من الخيال السياسي قبل عشرين عاماً، ولكننا مقبلون عليه شيئاً فشيئاً.

إلا إذا تذكرنا، في الوقت المناسب أننا نملك حرية الاختيار، وأن في كل مرحلة من مراحل تطور مجتمعاتنا ما زلنا نملك حق الاصطفاء، وأن حدوث الأسوأ ليس قدراً.

علينا أن نمنع ذكاءنا من الانطفاء، ولنطفئ التلفاز، وسيشكرنا أطفالنا على ذلك لاحقاً، لقد خضنا بأنفسنا هذه التجربة.

كورنيه، لاروبيلا - تموز 2002م.



## مختصر المراجع

رينيه دييو: آخر أجيال المكتوب، دار النشر فاقر 1989م، أحد أفضل الكتب حول العلاقة بين الأمية والتلفاز، من ناحية الطرح والعلاج.

ليليان لورسا: العنف على الرائي: الطفل المسحور، دار النشر سيروس أترناتيف، 1989م. المرجع الذي لا غنى عنه ضد العنف على التلفاز وتأثيراته على الأطفال، والمبني على احتكاك شخصي مع المشاهدين الصغار في وسطهم الطبيعي.

برونولوساتو: الطفل والشاشة، ناتان 1989م. تحليل ملائم لمكان التلفاز في حياة الأطفال والمجتمع، وعلاقته مع الثقافة، تعتقد المؤلفة أن هذه العلاقة مهددة إلى حد كبير من خلال الحضور الدائم للصورة على حساب أشكال التواصل الأخرى.

فرانسوا مارييه: دعوهم يشاهدوا التلفاز، دار النشر كلمان - ليفي 1989. أحد الكتب النادرة لصالح التلفاز الذي لا يسبب غياب الأطفال بل يفتح أمامهم أشكالاً أخرى من الثقافة والسلوك - بحسب رأي المؤلف.

جاك بيقتو: نشوة التلفاز. INSEP, 1984 رغم أن هذا الكتاب أصبح قديماً فإنه يبقى مرجعاً من حيث عموم تناوله للموضوع، وأسلوبه المثير، ونوعية كتابته واستقلاليته.

الخلاصات المرجعية - العلاقة بين التلفاز والطفل.